المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والفنون - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية
المجلد الثامن - العدد الثاني - ١٣٩٩ - ١٩٧٩

2

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الدين شيركوه

داغستان واليمن

بقلم ـ الاكاديمي ـ البروفسور

إي. يو. كراجكوفسكي

ترجمة وتقديم وتعليق الدكتور

جليل كمال الدين

الاستاذ المساعد في كلية الآداب ـ جامعة بغداد
قسم اللغات الاوربية

من المترجم ـ كلمة لابد منها :

١ ـ هذه الدراسة التاريخية ـ الادبية ـ الاستشراقية هي احد الاعمال القيمة لشيخ مدرسة الاستعراب السوفيتي ، الاكاديمي ، البروفسور إي. يو. كراجكوفسكي ، وقد كتبها في آذار ١٩٣٦ ، والقاها ، كتقرير ، في جمعية المستعربين ، في ٢٣ نيسان ١٩٣٦ ، ثم نشرتها اكاديمية علوم الاتحاد السوفيتي ، في مجموعة اعمال علمية صدرت تحت عنوان « في ذكرى الاكاديمي ن. يا. مار » ، في عام ١٩٣٨ ، ص ٣٥٨ ـ ٣٦٨ . وظهرت ضمن دراسات فصل كبير بعنوان « الثقافة العربية في القفقاس الشمالي » ، في احد اجزاء مجلدات مختارات كراجكوفسكي التي نشرت بعد وفاته .

٢ ـ وقد ترجمت هذه الدراسة الى عديد من اللغات الاوربية ، واستأثرت بكثير من النقاش والتقييم ، حتى انها كانت منطلقا للمزيد من اعمال البحث والتنقيب والدراسة التاريخية ـ الادبية في العلاقات بين اليمن وداغستان .

٣ ـ وفي ظننا انها تترجم الى لغتنا ـ التي هي اولى اللغات العالمية الحية بها ـ لاول مرة ، بعد (٤٠) سنة من نشرها بالروسية ! ولا شك ان ذلك يعكس ، فيما يعكس ، قصورنا الاساس في الدراسة التراثية ، واستكشاف كنوز تراثنا العلمي العربي ـ الاسلامي وتأثيره في الثقافات والاداب العالمية . ولا نعتقد ان الامر يقتصر على ما كتب عن تراثنا باللغة الروسية، بل يتعداه الى اللغات الاخرى !

٤ ـ ان عمل كراجكوفسكي العلمي هذا يعكس امانته الاستثنائية ، وحبه العميق الواعي للعرب ولغتهم وادبهم وتراثهم ، حتى انه قام بما كان ينبغي ان يقوم به احد العلماء العرب . وينبغي ان تقرأ مع هذه الدراسة دراسة اخرى له عن الادب العربي في القفقاس الشمالي .

٥ ـ ان هوامش المؤلف مثبتة في ختام الدراسة ، اما هوامشنا فهي مثبتة في الحواشي ، حيثما تطلب الامر ذلك .

WWW.ATTAWEEL.COM

ـ ١ ـ

لقد توطدت في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، في داغستان ، ظاهرة مهمة ، من حيث المعنى اللغوي والأدبي . فقد تواجدت في الاستعمال اليومي عديد من اللغات المحلية المختلفة ، التي لم يكن لها كتابة ، ولم تتئق صياغة ادبية . اما اللغة المكتوبة المتعارف عليها والمعمول بها ، والأساسية بل الوحيدة غالبا ، فقد كانت هي اللغة العربية الفصحى ... فبها كانت تتم المراسلات الادارية ـ العملية ، كما كانت مدعومة بالتقاليد المرعية ، وفيها ابدعت الكتابة المحلية سواء بشكلها النثري أم بشكلها الشعري . وبالطبع ، فان مثل هذا الوضع الذي تمتعت به اللغة العربية لم يترسخ فجأة ؛ وفي الحال . ومع ذلك فان ما بذل من اجل ايضاح مصادر هذا التأثير والتوطد التدريجي لا زال قليلا لحد الآن(*) .

ولاجل هذا ، فان من الضروري القيام بالدراسة النظامية لحجم التراث والتقاليد الأدبية العربية في داغستان ، استنادا الى المؤلفات العربية التي ذاعت هنا ، وخصوصا تلك التي ابدعت محليا .

ويمكن القول ان دراسة الشواهد نفسها تأتي بالكثير في هذا الباب ، غير ان هذا الامر لم يبدأ بعد .

(*) يتحدث كراجكوفسكي عن ادب عربي محلي ، اقليمي ، « قفقاسي » ، وعلى وجه التحديد « داغستاني » (وهذا ما سيكرس له دراسة ميدانية واسعة بعنوان « الادب العربي في القفقاس الشمالي » ، التي ترجمناها لمجلة « المورد » الغراء) . وبالطبع فثمة فارق بين الادب المحلي المكتوب باللغة العربية ، اي بالحرف العربي (كالادب الايراني ، والادب التركي ، قبل ادخال الحروف اللاتينية) وبين الادب العربي شكلا ومضمونا في الاقليم المعين . واذا كانت الجهود التي بذلت باتجاه دراسة مصادر التاثير العربي في الادب الداغستاني ضئيلة في زمن كراجكوفسكي كما يلاحظ هو ، فان الجهود التي بذلت وتبذل الآن بهذا الاتجاه كبيرة ، منها دراسة المخطوطات العربية ، ودراسة هذا الادب العربي الداغستاني ، وانشاء المتاحف والاقسام العلمية في فرع اكاديمية العلوم في داغستان ، المكرسة لهذه الدراسات وسواها . ولعلنا او لعل غيرنا سيتولى ، ولو جزئيا ، اضاءة هذا الحقل التراثي الهام .

(المترجم)

وربثما يتم هذا ، يتعين علينا الاكتفاء بالمعطيات الضئيلة للمصادر الداغستانية عن الصلة بهذا القطر « الاسلامي » او ذاك ، وخصوصا عن الصلة بالأقطار العربية . وعادة فان هذه المعطيات احادية الجانب ولكنها تظفر احيانا بالتاكيدات من الجانب المقابل « غير الداغستاني » ، واذ ذاك تتالق هي بنور غير متوقع وتكتسب اهمية كبيرة . ان احدى هذه الحالات التي اتضحت ، غير بعيد ، هي التي منحتنا المسوّغ لكلمتنا هذه .

ـ ٢ ـ

ان التراث والتقاليد الادبية المحلية لم تدخر شاهدا عن المرحلة القديمة لانتشار التاثير العربي في داغستان(*) ، بل هي على العكس تصر على ان هذا التاثير لم يظهر ابعد من نهاية القرن السابع عشر . وانها لمميزة ، بهذا الخصوص ، شهادة من يكاد يكون افضل وآخر عارف بهذه التقاليد ، نعني به **حسن القادري** (١٨٣٤ ـ ١٩١٠) . ففي عمله الشهير « آثار داغستان » ، الذي قيّمه ف. ف. بارتولد(١) تقييما رفيعا للغاية ، اكد هو ، بالمناسبة ، انه ليست ثمة في ايما مدينة او قرية في داغستان آثار لمخطوطات قديمة ، وانه بعد الالف الاول من الهجرة لم تكن ايما مكتبة(٢) . وعلى اساس الملاحظات والحواشي المختلفة في المخطوطات ، يقرر هو ان اكثرية هذه المخطوطات كانت قد جُمعت وكُتبت في « الحقب الاخيرة » ، وعلى نحو اساس : في بداية القرن الثاني عشر الهجري (اي في وقت لا يتأخر عن ١٦٩٠ ميلادية) .

ومن المهم أيضا بحث الاشارة الثانية التي يقدمها القادري . فمن الأمثلة التي يوردها هنا يتضح ان تاثير العلم العربي التقليدي قد بلغ داغستان ، ليس بذات القدر من تركيا (الأمر الذي يبدو منطقيا اكثر من حيث الاعتبارات

(*) اتضحت الآن ، بنتيجة الدراسات والبحوث الشاملة التي ساهمت فيها اكاديمية العلوم السوفيتية (المركز ـ في موسكو ولينغراد) ـ الاقسام الشرقية ـ ، وفرع الاكاديمية في (محج قلعة) ـ عاصمة داغستان ، اتضحت كثير من الامور التي القت الاضواء اللازمة على الشواهد الثقافية للمرحلة القديمة للتاثير العربي ، ونؤجل الحديث عن ذلك لمناسبة قادمة .

(المترجم)

السياسية)(*) ؛ بالقدر الذي مضى به ، على نحو مباشر ، من الأقطار العربية . وبالمناسبة : ليس فقط تحت تأثير الحج . بل وبفضل الرحلات الكبيرة والتأثير المباشر لبعض الاشخاص . فان العالم الداغستاني الاول ، الذي نشر « العلوم والفنون » ؛ هنا ، هو الذي يسميه القادري : محمد بن موسى فودوتلينسكي(**) . المرتحل في مصر ، والحجاز ، واليمن . وقد درس هذا في داغستان ، امدا طويلا ، ثم نزل حلب ، حيث وافاه الأجل حوالي العام ١١٢٠ هجرية / ١٧٠٨ ميلادية(٣) .

ويورد القادري ان الشيخ صالح اليمني كان احد معلميه ، وقد ترك فيه تأثيرا قويا . ويفسر تأثيره في ان محمد بن موسى ، متبعا في قضايا العقيدة طريقة الاشعري(٤) ، وفي قواعد الفقه مدرسة الشافعي(٥) ، ظل يعتبر نفسه غير مرتبط بهما(***) ، ولكنه ، على طريقة الشيخ صالح ، لاذ بالدراسة المستقلة (الاجتهاد) ونزع الى ذلك . ومفيدا من ملاحظات محمد بن موسى ، يورد القادري بعض الملاحظات عن معلمه(٦) ، الذي كان مجتهدا ، هو الآخر ، وترك سبعة مؤلفات تحمل اسمه ، وتوفي في مكة في عام ١١٠٩هـ/١٦٩٨م ، عن خمسة وستين عاما . وبشهرته يشهد اقتباس القادري احد الأشعار التي كتبها هو « في تلك الربوع » ، ناهيك عن المؤلفات المنسوبة اليه حقا .

وليس ثمة في المصادر الاوربية معطيات عن الشيخ صالح اليمني هذا ؛ كما لا يمكن ان توجد في المجموعة البيبليوغرافية الشهيرة لحاجي خليفة (المتوفى عام ١٦٥٨)(٧) . ومن مؤلفات الشيخ صالح اليمني ، التي يذكرها القادري ، مخطوطة واحدة فقط أدرجت في كتاب بروكلمان الشامل . وتوجد ، في الوقت الحاضر ، في مكتبة برلين(٨) . ان عنوانها ، الذي يتفق مع ما يورده القادري هو : « المنار في المختار من جواهر البحر الزخار » ، وهي تمثل تعليقا على مقتبسات من المجموعة الكبيرة لقواعد الفقه ، التي الفها احد الأئمة الزيديين في صنعاء ، احمد بن يحيى بن المرتضى (توفي عام ٨٤٠هـ/١٤٣٧م) تحت عنوان « البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الامصار »(٩). وستحين الفرصة للحكم على شهرة هذا المصنف في داغستان وحدها .

- ٢ -

ان عدم توفر المعطيات عن الشيخ صالح اليمني في الادبيات المعروفة حتى هذا الوقت يحملنا ، منطقيا ، بالدرجة الاولى ، على توجيه المساعي في البحث والتنقيب الى ميدان الكتابة اليمنية المحلية . ووفقا لصدفة سعيدة ، فان احد المصادر ليس فقط يؤكد ، على نحو غاية في الجلاء ، وباوفى التفاصيل ، ما افاد به القادري ، بل ويورد ، ايضا ، جملة من المعطيات الطريفة ، التي توضح وتشرح ، بشكل رائع ، علاقة داغستان باليمن في مدى نصف قرن على الاقل .

وفي عام ١٣٤٨ هجرية (١٩٢٩ - ١٩٣٠ ميلادية) ، أُصدر في القاهرة معجم بيبليوغرافي للأعلام بعد القرن السابع الهجري عنوانه « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » ، الذي صنفه العالم اليمني محمد بن علي الشوكاني (١١٧٣ - ١٢٥٠هـ) - (١٧٦٠ - ١٨٣٤م)(١٠) .

ومن الطبيعي ان تتغلب في المعجم تراجم الاشخاص المرتبطين باليمن ، حيث نجد بينها فصلا مكرسا للشيخ موضوع بحثنا (القسم الاول ص ٢٨٨ - ٢٩٢) ، وتتسم ترجمته بطابع ، غير تقليدي ، قطعا ، للشرح الموجز(١١) ، وذلك لان شخصية صالح اليمني تنطلق ، هنا ، على نحو اروع مما يمكن تصوره ، استنادا الى ملاحظات القادري المقتضبة :

« ان صالح بن مهدي بن علي ... المقبلي ، ثم الصنعاني ، فالمكي ، قد ولد في عام ١٠٤٧هـ/١٦٣٧م ، في قرية (المقبل) من منطقة (كوكبان)(١٢).

(*) ثمة دراسات سوفيتية حديثة عن التاثير العربي ، عن طريق تركيا ، وخصوصا من التاثير اللغوي ، ومن ذلك الكلمات العربية في اللغة الروسية والاوكرانية وسواها .
(المترجم)

(**) هو محمد بن موسى ، من قرية (فودوتل) الداغستانية، الذي يشير اليه كراچكوفسكي كثيرا في دراساته في هذا الباب .
(المترجم)

(***) المقصود ان محمد بن موسى ، والشيخ صالح اليمني كانا ينزعان الى الاجتهاد المستقل ، دون ان يخرجا على صلب الشريعة الاسلامية . ولعل هذه الاستقلالية في الاجتهاد كانت شيئا مشتركا بين علماء اليمن وداغستان في تلك الحقبة من الزمن .
(المترجم)

وقد تلقى العلم على جملة من علماء اليمن البارزين ، الذين كان بينهم العلامة محمد بن ابراهيم بن المفضل(١٢) . وكان يفد اليه ، كل يوم ، للقراءة عليه ، قادما من مدينة صلاق(١٤) وشبام(١٥) . وكان انتقاش المثير يعلو لغطه بينه وبين علمائه ، وكان نقاشا حاميا يتطلب البراهين ، ولا يأبه بالتقاليد . ثم انتقل الى مكة ، حيث كابد شتى المحن ، وظل هناك الى ان وافاه اجله عام ١١٠٨هـ/١٦٩٦م(١٦) . وقد اثبت تاريخ ميلاده ، كما تذكرته ، وفقا لكتبه ، حيث تذكر المعطيات التي تتحدث عن ذلك . وكان هو من عداد اولئك الذين تميزوا في كل علم يتعلق « بالكتاب » والسنّة ، وقد سبر غور المعرفة الدقيقة في كليهما(١٧) ، وفي اللغة العربية ، والبيان ، والحديث(١٨) ، وبرز فيها جميعا . وكانت لديه مصنفات حازت الرضا ، وكانت كلها اثيرة لدى العلماء ، الذين كانوا يخفون اليها ، ويستهدون بأدلتها . انه مستحق لهذا ، ففي عباراته القوة ، والفصاحة ، والسلاسة ، وكانت الاسماع تتطامن اليها ، والقلوب تستمرئها . ان كلماته تبلغ الالباب ، نافذة ، لا تترك احدا على رأيه عندما يعكف عليها . وحين كان يجد الكلمات متناقضة ، فانه كان يميط لثامها ، ويوجزها بعبارة مفهومة ، مستساغة . وغالبا ما كان يفض من المعتزلة(١٩) ، (ص ٢٨٦) ، في بعض قضايا العقيدة ، ومن الاشاعرة في بعض آخر ، ومن المتصوفة في كثير من المسائل ، ومن الفقهاء في كثير من استنتاجاتهم ، ومن اهل الحديث لبعض اسرافهم . ولم يكن يكترث ، في المحاججة ، بمن يخاصم ، مهما كان مقامه . وقد اشتهر ، من بين مؤلفاته البارزة ، كتاب (الحاشية) ، وهو تعليق كبير على متن « البحر الزخار » للامام المهدي ، وقد اسمى « المنار » ، وسلك فيه سبيل التجرد والانصاف . ومع كل هذا ، كان هو بشرا يخطىء ويصيب ، لكنه كان يتحدد بالحجة ، وليس بالكلام والتقولات . فمن هو على هذه الحال فهو مجتهد ، واذا ما بلغ المراد فانه يكافأ مرتين ، اما اذا اخطأ ـ فانه يكافأ مرة واحدة . ومن مؤلفاته « العلم الشامخ »(٢٠) ، الذي اعترض فيه على بعض المتزمتين والمتصوفة(٢١) . ومن مؤلفاته في الاصول ـ « نجاح الطالب على مختصر ابن الحاجب »(٢٢) ، الذي صنعه حاشية لهذا الاثر ، ذكر فيه المسائل المختارة في الاصول . ومنها ايضا « الاتحاف لطلبة الكشاف » ، الذي انتقد فيه الزمخشري عن كثير من اجتهاداته(٢٣) ، وذكر ما كان وجيها في رأيه . وفي عدادها تدخل ايضا « الارواح النوافح » و « الابحاث المسددة »(٢٤) ، التي جمع فيها آراءه واجتهاداته في الاحاديث والفقه والاصول ...

ـ « لقد الزم نفسه بالنقاش النقدي والاستقلال وليس الاعتماد على تقاليد اهل العلم في كافة المجالات . وحين نزل مكة ، فان عالمها البرزنجي محمد بن عبدالرسول المدني(٢٥) تعرّف على مؤلفه « العلم الشامخ في رد الآباء والمشايخ »(٢٦) ، وكتب رده عليه . وقد عقّب على ذلك بكتابه الذي دعاه « الارواح النوافح » (ص ٢٩٠) ، وكان هذا سببا في ارفضاض علماء مكة عنه . فقد نسبوا نظراته الى الزندقة(٢٧) بسبب التنصل من التقاليد ، والخروج على السلف . وقد وشوا بأمره الى سلطان تركيا . وبعث هذا بعضا من العلماء لاختباره . غير ان هؤلاء لم يجدوا فيه غير الخير ، وهكذا واصل المضي في طريقه الذي انتهجه ، وقد وافاه بعض الدامغانيين ، واستعاروا منه بعض مؤلفاته .. (ص ٢٩١) . وبصرف النظر عن سعة معطياته في العلوم ، فانه لم يلق بالا الى طرق المختصين في الحديث ، وعمل بمقتضى

ما وجده هو نفسه صحيحا ، كما هو المتعارف عليه لدى عارفي (الأصول). وبالرغم من انه كان يورد الاحاديث من الكتب المعتمدة فقط ، كالمجموعات الاساسية ومتعلقاتها ، الا انه حين كان يعثر على الحديث الذي يورد بسبل مختلفة لا تقوى على الارتفاع الى درجة المقبولية في عرف الآخرين ، فانه مع ذلك كان لا يهمل مثل هذا الحديث ، ويستهدي به . وكذلك فانه كان يتخذ الموقف ذاته تجاه ما يتسم بالقصور الطفيف . ولذلك كله كان ينبغي على الدارس التثبت في كل هذه الحالات .

ـ « وفي مؤلفاته(٢٨) يذكر اشعاره(٢٩) ، غير انها ادنى بالمقارنة مع نثره ؛ فنثره ذو مستوى رفيع . ومن افضل اشعاره تلك التي يقول فيها : « فليلعن الله اولئك الذين يفصلون ما بين « الاقارب » و « الصحابة »(٣٠) .

وعلى ذلك رد احد جارودية اليمن(٣١) باشعار شتمه فيها شتما ذريعا ... ولعل ذلك لأن الله يريد ان يمنحهم الجائزة الاخيرة . لقد انكر ما يؤكده المتصوفة حول اكتشاف الامور الخفية . مرضت لديه ، في مكة ، ابنته زينب ، فمضى الى الحرم . واخبرته، من وراء الحجرات ، بما يجري في الحرم . وقد حبسها عدة مرات ، ولكنها قالت له انها ترى كذا وكذا وكذا وكذا ، فانطلق الى الحرم (ص ٢٩٢) ، واقتنع ان ما قيل له حق . وهو يذكر في أحد مؤلفاته انه قد تلقى العلم في مكة على الشيخ ابراهيم الكردي ، المذكور آنفا »(٣٢) .

ـ ٤ ـ

وفي ضوء هذا الفصل من معجم السير للشوكاني ، فان خبر حسن القادري يكتسب اهمية بالغة . فهو يدعم بمصدر مستقل عنه ، بالغ الدقة ، كما ان صورة الشيخ صالح اليمني ، الملهم الاول للعلوم الدينية في داغستان ، تتلقى اضاءة اكثر تحديدا . ويتضح انه ، بالفعل ، يتميز ، اضافة الى الصحة البالغة ، باستقلالية الدرس ، التي تضعه أحيانا ، على حافة التجديف ، في عيون السلفيين . ولكن ، بالطبع ، يكتسب اهمية استثنائية بالنسبة لموضوع بحثنا ، ذكر هذا الكاتب اليمني لصلة الشيخ صالح بالداغستانيين ؛ كما ان ظهور هذا الخبر في مصدرين لا يعتمد احدهما على الآخر ، اطلاقا ، يجعل ذات الحقيقة غير مشكوك فيها .

ان مغزى ذلك المقتطف لا ينتهي بهذا : انه يسمح لنا بالمضي شوطا اعمق ، والتأكيد بأن هذه العلاقة لم تكن مشهدا عارضا ، وانما وضعت الأساس لتقاليد شهيرة ستعمر . كما سنرى . قرنين من الزمان . ففي اثر الذكر المقتضب لعلاقة الشيخ صالح اليمني بداغستان ، فان الشوكاني يستطرد ، بعض الشيء ، فيقدم قصة من حياته الخاصة :

ـ « لقد قدم احد علماء هذه البلاد الى صنعاء ، وكان عارفا بضروب العلم المختلفة . وقد التقيته في مدرسة امام شرف الدين في صنعاء ؛ وسالته عن أسباب ارتحاله من بلده ـ الم يكن ذلك لاجل تنفيذ فريضة الحج . فأجابني بلسان غاية في الفصاحة والذلاقة ؛ انه ذهب للبحث عن « البحر الزخار » للامام المهدي احمد ابن يحيى ، وذلك لأنه ثمة حاشية « منار » المقبلي . ان اكابر علماء داغستان مناصرون متحمسون لدراستها ، اما هي فوراء منطقة الروم على مسافة شهر ، كما اخبرني هو عن ذلك . وقال انه عند قراءة هؤلاء العلماء لها تجلت لهم غير واضحة بعض استقصاءاتها ؛ ذلك انها متعلقة بالكتاب الذي تفسره هي ، أي كتاب « البحر » . وها انه قد تهيأ للبحث عن مخطوطة « البحر » . وقد وصل مكة ، وسأل عن (الحاشية) ؛ ولكن لم يكن لدى احد علم بها . والتقى هناك بالسيد العلامة ابراهيم بن محمد بن اسماعيل الامير(٣٣) الذي اخبره بأن كتاب « البحر » موجود في صنعاء لدى كثير من العلماء . وختم كلامه بالقول : « ولذلك ، فاني جئت الى هنا » . وفي يوم آخر رايته جالسا في المدرسة ؛ عاكفا على مخطوطة

« البحـــر » يقرؤها قـراءة الراغب المتناع ، وكان مسرورا بذلك غايـــة السرور . ولم ار ضريبا له في احسان التعبير البليغ ، واتقان اللغة الفصحى، وتجنب السوقية والابتذال في الحديث، والتلفظ الرائع . وعند سماع كلماته تملكتني الغبطة والحبـور ؛ حتى ان رعدة سرت في اوصالي . وعلى ايـــة حال ، فانه ، غفر الله له ، توفي بعد قدومه الى صنعاء بوقت قصير ؛ ولم يقدر له الله العودة بالكتاب الموعـــود الى وطنه(٢٤) .

ومن الصعب تقييم مغزى هذه القصـــة . فهي تتحدث ، قبل كل شـــيء ، من الاهتمـــام المتواصل بكتاب الشيخ صالح اليمني في داغستان ؛ الذي من اجله لم يتردد العلماء في تجشم عنـــاء السفر الشاق الى البلاد العربيـــة ، مضحين ؛ احيانا ، بارواحهم ، في سبيل ذلك . وفضلا عن ذلك ، فان في غاية الاهمية شهادة اليمني المتحمسة للداغستاني في تملك ناصية اللغة العربية : فقـــد جاءت مخلصة ، ومقنعة على شفتي عالم لغتـــه العربية هي اللغة الام . ان الملاحظة عن غيـــاب اللفظة السوقية مفهومة ، وتوضح اعجاب المؤلف الشديد ، فقد اذهله ، بخاصة ، وهو العـــربي الاصل الذي يستخدم اللهجة الدارجـة ، عادة ، ان الداغستاني قد تحدث ، في حديثـه اليومي ، بلغة عربية فصحى ، لا غبار عليها .

ـ ٥ ـ

ثمة امكانية التدقيق زمنيا في القصـــة ، موضوع نظرنا . لقد توفي مؤلف المعجم في عـــام ١٢٥٠هـ (١٨٣٤ م)(٢٥) ، غير انه يذكر ابراهيـــم ابن محمد ، الذي دل الداغستاني ، في مكة ، على وجود المخطوطة في صنعاء . وقد توفي ابراهيم هذا في عام ١٣١٢هـ (١٨٩٥ م) ، اما رحلة الداغستاني فينبغي ان تكون قد وقعت قبل هذا التاريـخ . وعلى هذا المنوال ، فان مرحلتين مؤرختين زمنيا ـ هما تاريخ وفـاة صـــالح اليمني ورحلـــة الداغستاني ـ تمنحاننا الحق في تثبيت أن تأثير الاول في داغستان قد بان على مدى القرن التاسع عشر كله .

ان الصلة المباشرة بالاقطار العربية أمر جرى تأكيده ، في وقت متأخر ، طبعا . ففي سبعينات القرن التاسع عشر كان **محمد طاهـر القراخي** ، مؤلف المصنف الشهير في تاريخ شامل(*) ، قد اتصل « العلماء المكيين والمصريين » بسبب الجدل الذي اشتد بين العلماء الداغستانيين ، في حوالي هـذا الوقت ، حول (النظرة)(٢٦) ، كما كان (سنوك هورغورونه) قد رأى في مكـة ، في الثمانينات ؛ بين العلماء المستوطنين هناك ، رعيلا كبيرا مـــن الداغستانيين ، الذين كانـــوا يتمتعون بشهـــرة عريضة(٢٧)(**) .

ان كل هذا يشير ، بشـــيء من التحـديد والتاكيد ، الى ان تأثير الادب والثقافة العربية قد رسخ في داغستان ، ليس فقط عن طريق تركيا ، كما يبدو هذا طبيعيا ، من الوهلة الاولى ، بمقدار ما نشأ بسبب الاختلاط المباشر .

وعلى خلفية هذه الصلة الوثيقة بالاقطـــار العربية ، فان تأثير العالم اليمني ومؤلفاتـــه ليس بالمشهد العارض ، الاتفاقي ، بل انه قد حافظ على قوته ، حتى في بداية القرن العشرين .

وعن هذا يتحدث ، بمنتهى الجلاء الاستفسار الذي تقدم به الى حسن القادري مواطن له يدعى حاج عليل افندي وكان جواب حسن ، المثبت في ثاني محرم الحرام ١٣٢٣ هجرية (٩ آذار ١٩٠٥ ميلادية) ؛ يحفل بأهمية ليس اقل من اهمية المواد المذكورة عن صالح اليمني .

(*) القراخي ـ نسبة الى طائفة (القاراخ) في داغستان . اما شامل فهو الامام الثائر في داغستان ضد الحكم القيصري ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وقد استقطب اهتمام وتاييد الداغستانيين جميعا ، الا ان ثورته انتهت بالفشل ، في معركة غير متكافئة ، وقد اسر شامل اخيرا ، وبعث به الى روسيا . وكان شامل قد طلب من القراخي تدوين سجل معاركه مع الجيش الروسي القيصري ، فكتب هذا ، باللغة العربية ، كتابه المشهور « بارقة السيوف الجبلية في بعض الغزوات الشاملية » موضوع دراســـة كراجكوفسكي .

(المترجم)

(**) في مبحث كراجكوفسكي القيم « الادب العربي في القفقاس الشمالي » شيء من التفصيل اللازم عن هذا الموضوع ، بخاصة ، ومن العلاقات الثقافية العربية ـ الداغستانية ، عامة .

(المترجم)

كتب حسن :

« عن كلماتكم اجيب :

ـ « ما هو وضع الشيخ العلامة صالح اليمني ؟ أمجتهد هو أم مقلد للمجتهد ؟(٣٨) ، فاذا كان مجتهدا ؛ فاي مجتهد هو : أهو مجتهد مطلق الصلاحية ، أم انه مجتهد في حدود النظام أو الفتوى ؟ وكيف يتفق هذا مع كلمات العلماء الفضلاء عن توقف الاجتهاد بعد اربعمائة سنة من الهجرة ؟ ثم هل يسمح بتقليده في تفاصيل امور الشريعة في الحياة أم لا ؟

ـ « **وها هو الجواب** : ان ايقاف الاجتهاد ، بعد الزمن المذكور ، رأي غير مرجح ، كما يعرف السائل ذلك طبقا للتعبير التالي للتعليق على « جمع الجوامع »(٣٩) ـ « من الممكن غياب المجتهد لوقت محدد ، أي انه لا يبقى منه شيء من الاجتهاد » ، وذلك بمناقضة الحنابلة ، الذين لا يسمحون اطلاقا بغيابه ، وكذلك ابن دقيق(٤٠) ، الذي لا يسمح بامكانية غيابه ما دام الوقت لم يَعُدْ مهددا ، والاصول لم تتزعزع بعد . فاذا ما أنذر الوقت بأمائر قيام الساعة الرهيبة ، كطلوع الشمس من الغرب وما الى ذلك ، فان غيابه ممكن في مثل هذا الوقت . وانه لمن الأفضل ، حيثما تسمح الامكانية ، اعتبار حضوره غير محدد . ولكن يقال انه يقع مثل هذا .

ـ «ان بلوغ انسان معين درجة الاجتهاد المطلق او الاجتهاد المحدود بحدود يثبت ، وفقا لشهادة عالمين معتمدين كاملي الاهلية ، خبيرين واسعي الاطلاع على وضعه ، او وفقا لأيما شهادة اخرى، بشرط تواتر الانتشار والشيوع الخ ، وقد ثبت هذا في مكان مناسب . ان الشيخ المذكور ـ تغمده الله برحمته ـ قد غادرنا الى الدار الآخرة ، حيث وافاه اجله ، في مكة المكرمة ، في بداية القرن الثاني عشر الهجري ، وقد انتشرت في كل مكان في داغستان الاخبار عنه طبقا لرواية شيخ مشايخنا العلامة الحاج محمد افندي بن موسى واضرابه من الذين قدّر لهم اللقاء بالشيخ صالح هناك . بل لقد حصلوا على بعض مؤلفاته ، التي اتضح منها ادعاؤه بالاجتهاد المطلق .

ـ « وفي احدى أسانيد حكاياته وجدت ان السلطان قد بعث الى مكة العلماء الفضلاء من المذاهب الأربعة لمحاججة الشيخ صالح وتحري امره . وقد وجدوا في شخصه عالما لا حدّ لعلمه ، ووجدوا ان اقواله لا تعدو حدود المذاهب الأربعة ، وهكذا فانهم اتفقوا على تسمية مذهبه باسم « حنبلي » ؛ لتبيين انه مؤلف من المذاهب الأربعة : الشافعية ، والحنفية ، والمالكية والحنبلية الخ . على اني لا اعتقد انه مؤلف منها ، اذ كيف يمكن ان يكون ذلك حين قد أعلن هو ، جهارا ، في بعض مؤلفاته ، الآراء التي تتخطى حدود كافة المذاهب ... واذا ما طاوعنا هذه الفرضيات فانه يمكن التأكيد على ان هذا العالم مجتهد فاضل ؛ وان مذهبه مع مستلزماته وشرائطه مبرر في قضايا الأحوال الشخصية ، ولكن ليس في دور القضاء والفتوى في مناطقنا ، وذلك لان سكان هذه المناطق يبدون كما لو انهم الزموا قضاتهم ومفتيهم باتباع مذاهب زعمائهم ، الذين يعترفون بهم ، كالامام الشافعي والامام الحنفي ، فليتغمدهما الله برحمته ... والله الموفق . والسلام !

كتبه في ثاني محرم الحرام ١٣٢٣ هجرية
في « القادرة »
الأحقر الى ربه ـ حسن القادري(٤١)

*

وفيما عدا التكرار الجزئي للحقائق التي عرفنا ، فان هذا الجواب مهم كمؤشر على الاهتمام الحي بشخصية صالح اليمني في داغستان ، حتى في بداية القرن العشرين ، في عشية الحرب العالمية والثورة .

ان موضوعة « داغستان واليمن » ـ موضوعة

تحتمل المتابعة والرصد ، منذ نهاية القرن السابع عشر حتى ايامنا هذه .

انها تؤكد ؛ مرة اخرى ، ضرورة ايلاء الاهتمام الكبير الى شواهد الثقافة العربيـــة في القفقـاس الشمالي(*) .

(*) كرس كراجكوفسكي وتلامذته اهتماما فائقا ب « شواهـــد الثقافة العربيـــة في القفقـــاس الشمالي » ، فعقـــد كراجكوفسكي نفسه دراسات ميدانيـــة عن الموضوع كان ابرزها « الادب العربي في القفقـاس الشمالي » (الذي ترجمناه لمجلة « المورد » ، لاهميته الخاصة ، ولصلته المفوية بهذه الدراسة عن داغستان واليمن) ، ودراسات عن المخطوطات العربية حول ثورة الامام شـــامل ، التي كتبها علماء داغستانيون مختلفون . وفي ذخيرة الادبيـات الاستعرابية السوفيتية المعاصرة دراسات قيمة اخـــرى تستحق اقصى الاهتمام منا ، قبل غيرنا .

(المترجم)

★ —— ★

هوامش المؤلف

(١) W. Barthold. Daghestan. El, 1, P. 929.

(٢) حسن القادري ، اثار داغستان ، باكـو ، ١٩٠٢ ، ص ٢٢٢ . في الترجمة الروسية (مجموعة مواد لوصف مواضع وقبائل القفقاس . النشرة ٤٦ ، محج قلعة ، ١٩٢٩ ، ص ١٥٦) .

ان هذا المكان لم يورد بتمام الدقة ، انظر :

W. Bartnckd. Dagnestan. El, 1, P. 929.

(٣) وفقا لمعطيات ا. سعيدوف : ولد في (١٥) رمضان ١٠٤٢ هجرية (٢٧ آذار ١٦٣٢) ، وتوفي في رمضان ١١٢٩هـ (آب ١٧١٧م) .

(٤) مؤسس مذهب فلسفي ديني في الاسلام (٢٦٠ ـ ٣٢٤هـ) ـ (٨٧٣ ـ ٩٣٥م) . انظر :

— Al-Ash'ari. El, 1, P. 499;
— Ergänzugsband, P. 36.

(٥) مؤسس احد المذاهب الدينية الاربعة للشريعة الاسلاميـة (١٥٠ ـ ٢٠٤هـ) ـ (٧٦٧ ـ ٨٢٠م) . انظر :

W. Heffffening, Al-Shafi'i. El, IV, P. 271-273.

(٦) حسن القادري ، دليل المؤلفات ، ص ٢٢٣ ، الترجمـــة الروسية ، ص ١٥٧ (في ترجمة عناوين الكتب والمقتبسات العربية كثير من التشويهات) .

(٧) ثمة لمحة وجيزة عنه ، كتبت بصدد اصدار احد مؤلفاته في القاهرة ، انظر :

— Sarkis. Dictionaire encyclopedique de Bibliographie Arabe, X. Caire, P. 1772;
— C. Brockelmann. Gal, Sb II, P. 562, 13.

(٨) بدلا من العدد ٤٩١١ .

— (C. Brockelmann. Gal. II, P. 187, 6, 11a)

اقرأ العدد ٩١٨ .

وانظر ـ

— (Ahlwardt, IV, P. 314).

ـ وتوجد ثمة مخطوطتان اخريان في المتحف البريطاني :

— (Riev. Supplement to the Catalogue of the Arabic Manuscrits in the British Museum. London, 1894. PP. 245-246, No 409).

ـ وفي مجموعة لاندبرغ السابقة :

— (C. Landberg. Catalogue des manuscrits arabes provenant d'une bibliothéque privée à El- Medina appartenant à la maison E. J. Brill. Leiden, 1883, No 588).

ـ انظر الآن :

— (C. Brockelmann. Gal, Sb II, P. 246).

حيث يشار ايضا الى مخطوطة في ميلانو .

(٩) انظر :

Brockelmann. Gal, II, P. 187, No6, 11.

(١٠) ان المعلومات المتعلقة بترجمة حياة المؤلف تتوفر في معجم آخر ذي اصل يمني ايضا ، مؤلف من قبل عالم معاصر هو محمد بن يحيى زبارة الصنعاني : (نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن السادس عشر ، الجزء الثاني، القاهرة ، ١٣٥٠ ، ص ٢٩٧ ـ ٣٠٢) .

(١١) لقد حذفت في الترجمة كثير من التفاصيل غير المهمـــة بالنسبة للموضوعة الحالية ، او بالنسبة لسيرة حيـاة الشيخ صالح اليمني ، وقد اشير الى المحذوف بالنقاط .

(١٢) للاطلاع على اوصاف اقليم ومدينة كوكبان ، التي تقـــع الى الشمال من صنعاء ، انظر :

— A. Grohmann. Kawkaban. El, II, PP. 890-892.

(١٣) انظر فيما يتعلق به (١٠٢٢ ـ ١٠٨٥هـ/١٦١٣ ـ ١٦٧٤م):

— C. Brockelmann, Gal, II, PP. 402-403, No 10.

(١٤) اني اقدم مثل هذه الحركة ، استنادا الى المعجم الجغرافي لياقوت الحموي : (ياقوت ، المعجم ، الجـــزء الاول ، ص ٩٣١) ، الذي يذكر مع هذا الاسم قلعة في اليمن .

(١٥) من بعض المدن التي تحمل مثل هذا الاسم ، يؤخذ بنظر الاعتبار : شبام كوكبان ، والتي ينظر بخصوصها :

— A. Grohmann, Shibam, El, IV, P. 385.

(١٦) ان التواريخ للترك ، بعض الشيء ، عن تلك التي يفيد بها القادري ، فالافضل ، اذن ، الرجوع الى المصدر اليمني .

(١٧) يقصد بذلك علمان اساسيان : « اصول الدين » و « اصول الفقه » . وللتفاصيل انظر :

— J. Schacht. Usul. El, IV, PP. 1142-1146.

(١٨) هما قسما البلاغة .

(١٩) اسم مدرسة فقهية متنفذة ، كانت قد وضعت الاساس للجدل في الاسلام ، انظر :

— H. S. Nyberg. Al- Mu'tazila, El, III, PP. 850-856.

(٢٠) ان اكثرية اسماء مؤلفاته مشوهة في ترجمة القادري . ولن اتحفظ ، كل مرة ، بهذا الخصوص . ان كتاب « العلم » المذكور قد اصدر في القاهرة ، مع ما اسمي ، في لاحق ، بـ « الارواح » ، بتحرير رشيد رضا ، في ١٩١٣ . انظر :

— J. Sarkis. Dictionnaire encyclopédique de bibliographie arabe. Caire, 1929, P. 1772;

— J. Sarkis, Catalogue. Janvier, 1937, P. 81.

(٢١) يورد المؤلف عنوانا اتم ، نوعا ما ، لهذا المصنف ، في لاحق .

(٢٢) ان « مختصر » ابن الحاجب (المتوفى في عام ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) ، الذي كتبه المؤلف نفسه هو موجز لمجموعة اسس نظام الفقه لدى المالكية ، انظر :

— C. Brockelmann, Gal, 1, P. 306; M. Ben Cheneb. Ibn al- Ha'djib, El, II, P. 405.

توجد مخطوطتان لمؤلف صالح هذا في اوربا يشار اليهما الآن :

— C. Brockelmann. Gal, Sb, I, P. 538 f.

(ان رقم المخطوطة الموجودة في مجموعة لاندبرغ هو ٦٥١ ـ وليس ٦٨١ ، كما هو مشار اليه لدى بروكلمان).

(٢٣) المقصود هو تفسير القرآن الشهير ، الذي كتبه الزمخشري (المتوفى في عام ٥٣٨هـ/١١١٤م) ، وظهر تحت عنوان « الكشاف عن حقائق التنزيل » ، ويعتبر مشبعا بالاتجاهات الانعزالية . انظر :

— C. Brockelmann. Al- Zamakhshari, El, IV, P. 1305.

(٢٤) ان اسم هذا المؤلف لدى القادري (دليل المؤلفات ، ص ٢٣٢ ، الترجمة الروسية ، ص ١٥٧) يورد بشكل اكثر اكتمالا : « الابحاث المسددة من الفنون المتعددة » ، ويدعم هذا الاسم ويؤكد بكلمات لاحقة للشوكاني . وقد اصدر المؤلف الاول في القاهرة عام ١٢٢٨هـ ، انظر :

— C. Brockelmann. Gal, Sb II, P. 562, No 13, ٤);

اما بصدد مخطوطتي المؤلف الثاني ، فانظر ذات المصدر ، العدد ١٣ .

(٢٥) على الارجح ، يذكر بروكلمان مؤلفا واحدا له :

— C. Brockelmann. Gal, II, P. 443, 3 - 5)

ويورد تاريخي ميلاده ووفاته (١٠٤٠ ـ ١١٠٢هـ/١٦٣٠ ـ ١٦٩١م) .

(٢٦) انظر هذا العنوان لدى :

— C. Brokelmann. Gal, Sb II, P. 562, No 13, 2.

(٢٧) هذا هو المصطلح العام الذي يضم مختلف ظلال الافكار ، ابتداء من عشق الحرية الى الهرطقة ، انظر :

— L. Massignon, Zindik, El, IV, PP. 1329-1330.

(٢٨) لا يذكر الشوكاني احد المؤلفات الذي يورد القادري عنوانه في (دليل المؤلفات ، ٢٣٣ ، الترجمة الروسية ، ص ١٥٧) ، وهو « حب الغمام على بلوغ المرام » . وانا اقرأ الكلمة كالتالي : الغرام بدلا من الغمام ، وعلى الارجح يمثل هذا الكتاب تعليقا على مجموعة احاديث ابن حجر العسقلاني (توفي في ٨٥٢هـ/١٤٤٩م) ، تحت عنوان « بلوغ المرام من ادلة الاحكام » :

— (C. Brockelmann. Gal, II, P. 49, 19).

(٢٩) يورد القادري (دليل المؤلفات ، ص ٢٣٣) بداية احد الاشعار المكتوبة « في هذه الربوع » (في دافستان) . اما في الترجمة الروسية (ص ١٥٧) ، فان بيت الشعر الاول يشوه تماما الفكرة اللازمة لوصف شخصية صالح اليمني. اذ بدلا من « لقد تجنبت ، طوال حياتي ، التعصب الطائفي ، وكتبت كتابا للاصدقاء » ، ينبغي ان يثبت ما يلي : « لقد كففت عن اتباع اي من المذاهب ، وفضلت « الكتاب » (القرآن) على التحزبات (التفسيرات المختلفة) . ان هذا الشعر يؤكد ، بجلاء ، طموحه الى الاجتهاد المستقل ، ورفض الخضوع للتقاليد ، حتى المذهبية منها .

(٣٠) بـ « الاقربين » يقصد (آل البيت) : ابناء ابنته فاطمة ، الذين يختلف الموقف منهم ، نسبيا ، عن الموقف تجاه « الصحابة » ، في مذاهب الاسلام المختلفة .

(٣١) الجارودية ـ احدى المجموعات المتطرفة للطائفة الزيدية ، السائدة في اليمن ، وقد تلقت اسمها من المؤسس (ابو الجارود) . انظر :

— R. Strothmann. Al-Zaidiya, El, IV, P. 1295.

(٣٢) لقد ادخل الشوكاني ، فعلا ، اللمحة من ترجمة حياته (١٠٢٥ ـ ١١٠١هـ) ـ (١٦١٦ ـ ١٦٩٠م) ، في بدايته معجمه للسير : (« البدر الطالع » ، مج ١ ، ص ١١ ـ ١٢) .

(٣٣) ان الترجمة المفصلة لحياة هذا العالم ، الذي كان ايضا وليد صنعاء ، تحتل مكانها لدى محمد بن يحيى زباره : « نيل الوطر » ، ج ١ ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ ، ص ٢٨ ـ ٣٤ ، العدد (١٠) . اما المعطيات الاوجز فنجدها لدى الشوكاني (دليل المؤلفات ، ج ٢ ، ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣) ، في السيرة الذاتية لابنه علي بن ابراهيم . ان تاريخي الحياة اللذين يشير كلاهما اليهما ، هما : (١١٤١ ـ ١٢١٣هـ/١٧٢٨ ـ ١٧٩٩م) .

(٣٤) الشوكاني ، البدر الطالع ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .

(٣٥) محمد بن يحيى زباره ، « نيل الوطر » ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ .

(٣٦) مجموعة معطيات ومعلومات عن جبلي القلقاس ، النشرة (٥) ، ١٨٧١ ، القسم (أ) ، «السجل الجبلي» ، ص ٤٠ ، اضافة .

(٣٧) — C. Snouck Hurgronge. Mekka. II. Haag, 1889, PP. 255-256 : "Aus Daghustan stammen einige von den geschätztesten Lehrkräften des Haram. Kurs vor meiner Ankunft in Mekka war der berühmte Abd el Hamid el- Daghustani dahingeschieden, dessen Gelehrsamkeit von vielen Kollegen über die des Sejjid Daklan gestellt wurde. Sein Sohn Muhammed machte dem Vater Ehre und gehörte nach der allgemeinen Ansicht zu den sechs besten Ruraner ecitatoren Mekka's"

ـ (الترجمة الروسية ـ انظر : ف. بارتولد ، العلم الاسلامي في مكة ، مستل مستقل ، ماخوذ من « الكشوف التركمانية » للعامين ١٨٩٥ و ١٨٩٦ ، ص ٩٤) .

ـ وعن زيني دحلان ، الذي يعتبر احد اكبر علماء هذا العصر ، انظر :

— C. Brockelmann. Gal, II, PP. 499-500

مع المصادر المشار اليها انفا .

(٣٨) بخصوص كل المصطلحات والتصورات المرتبطة بها ، انظر :

— A Shmidt. 'Abd al- Wahhab ash-Sha'rani i evo "Kniga rassipanikh Jemchujin". Snb., 1914, ossobeno PP. 109-110.

[٢. شميدت ، عبدالوهاب الشعراني وكتابه « اللآلىء المنثورة » ، ١٩١٤ ، سانت بطرسبورغ ، وخصوصا الصفحات ١٠٩ ـ ١١٠] .

(٣٩) يدور الحديث هنا ، على الارجح ، حول مؤلف تاج الدين السبكي في مبادىء الفقه ، انظر :

— C. Brockelmann. Gal, II, P. 89.

(٤٠) المقصود هنا : محمد بن علي بن وهب دقيق العيد المنفلوطي ، كاتب القرن الثالث عشر ، انظر :

— C. Brockelmann. Gal, II, P. 63, No 1.

(٤١) حسن القادري ـ جراب المنون ، تبريخان شوره ، ١٩١٢ ، ص ٢٧٩ ـ ٢٨١ .

WWW.ATTAWEEL.COM